جـاجـة ستـي

لم أنس تلك الدّجاجة اللعينة، التي لم تترك لنا شيئاً إلا نبشته، كنت أكرهها جداً، فقد كانت تعبني وأنا أبحث عن بيضها، فهي تترك القنّ لتبيض في مكانٍ بعيد، واليوم جاء موعد الانتقام الجميل منها، فقد نادتني ستي وقالت:

-أسمع تقلك، بدكم اليوم تزّفروا.

-معقول يا ستّي! بس أبوي ما خطر ع رام الله تيجيب معاه كرشات.

-اليوم يا ستّي، بدي أذبحلك الجاجه الحمرا البلديه.

لم أصدق ما سمعت، فستّي تحبُّ دجاجتها كثيراً، ولم أعرف أنها ستنهي حياتها وتتخلى عنها بهذه السهولة؛ لأن بيضها أصبح محدوداً، فهل من قلّ بيضه وَجَب ذبحُه؟ وإن لم يُذبح هل يُلقى بعيداً عن العيون منبوذا؟ طرت فرحاً من هول الصدمة،صحت عالياً: جاج جاج، بدنا نوكل جاج، لحمة لحمة، بدنا نوكل لحمة، خرجت الكلمات من فمي لحناً جميلاً تناسب أن تكون سيمفونيةً تُغنّى في دار الأوبرا العالمية.

قالت: بس بدّي اتوريني مراجلك وتمسكها.

بدأت أستجمع قواي لمعركة حاسمةٍ لا بدّ أنها آتية، والعاقل هو من يستعدُّ جيداً لخوض أي حربٍ محتملة، وانطلقت وراءها مُحلقاً كصّقرٍ جارحٍ يريد أن ينقضّ على فريسته، هربتْ أمامي بسرعة البرق،فبدا لي أنها شعرت بخطر قد اقترب، وبدأت بالمواجهة، والجبناء هم وحدهم من يحنون رقابهم لأعدائهم بلا مقاومة، فقد كانت أرشق منّي، وأخفّ وزناً، لا أعرف من أين كانت تأتي بكل هذه الحيوية، والصوت العالي الذي تطلقه كلما اقتربتُ منها، تحولت إلى نسرٍ يحلّق في السّماء، يصعب عليّ إمساكها... وبعد محاولاتٍ عديدةٍ فاشلةٍ احمرّ وجهي،كشمسٍ أوشكت على الغروب، وتصبّب العرق من كلِ أطراف جسمي، وانهارت قواي بشكلٍ كامل، وأدركت حينها أن استعدادي كان ضعيفاً، وأنّي وضعت ثقةً بنفسي كما وضعت الشعوب العربية ثقتها بحكّامها أيام حرب ١٩٦٧م.

ذهبت إلى ستّي لأخبرها بهزيمتي المدّوية كهزائم العرب في كل الميادين الذين أخفوها عنّا ولم يتجرؤوا الإعلان عنّها أو يعترفوا بها، والذين ما زالوا يتغنون بانتصار يومِ بدر وكأنهم هم الذين حاربوا قريش، ونسوا أنّ الملائكة هي التي حاربت وانتصرت.

نعم، أعلنتُ هزيمتي وانتصار الدّجاجة الحمراء انتصاراً يسجّله التّاريخ.

- ستي، مقدرتش أمسك جاجتك، مُتت وأنا أطارد وراها، وعالفاضي.

- كشل عليك، يا خسارة البيض إلّي أكلتو، يا خسارة دعابيب الخبز إلّي لقحتهن.

رفعت ثوبها، وثنته تحت حزامٍ من قماش يلتف حول خاصرتها، ولبست حذاءها البلاستكي الأسود، الذي تتعرّق قدم منتعله بعد لحظات سريعة من انتعاله، لم أعرف وقتها أن هذه الأحذية، صُنعت خصيصاً للفقراء كي تقاوم قسوة الأرض التي يعيش عليها أصحابها، ولم أعرفْ أن رائحتها تظلّ كريهةً، ما دامت أمامك أو في قدميك، ورغم رداءة هذا الحذاء صارت ستي تحوم وراء دجاجتها المجنونة، ينفلت أحد نعليها بعد أن تعرّق، نظرت اليه وكأنها تقول له انتظرني سأعود، عرفت مكانك، فتركته خلفها إلى أن تضع الحرب أوزارها مع دجاجتها، وانفلت ثوبها من الحزام، فوضعته في فمها وتابعت،كانت تتمتم بكلمات لم أفهمها، هل تطلب منّي المساعدة أم كانت تكيل لي الشتائم؟

وقفتْ جدتي، وأرخت ثوبها من فمها بعد أن أدركها التّعب، وأعلنتْ عن خطةٍ جديدةٍ للهجوم وصاحت:

-ولك، روح جيب السّعادين إولاد الحارة، خليهم يمسكوا هالمخسفي.

طِرت كعصفورٍ صغيرٍ يبحث عن حب يلتقطه صوب الحارة، لأحضر فريق التّدخل السّريع، فهم على استعدادٍ تامٍ للحالات الطارئة، كما قوات مكافحة الشّغب في بلادنا، فهي لعبتنا المفضلة، لنعرف من البطل الذي سيلقي القبض على الدّجاجة! ومن سيتفاخر بهذا النّصر العظيم، وما أن حضر (جنود) الحارة، حتى بدأت معركةٌ من جديد، انتهت بالقبض عليها، بعد أن أرشدنا مارٌ إلى إمساكها، فقال: قليلٌ من الحبّ يغري الدّجاج، مهما نتفت ريشه، وبسرعة انتهت المعركة ...

-هات الخوصه، واذبحها يا ستى.

-بس أنا يا ستى بعرفش أذبح.

-أمسك، وخليك زلمي، وسمّي.

شعرت بالنّصر والرّجولة المفاجئة التي انتابتني عند الانتهاء من هذه المهمة الجديدة، فتلك هي المرة الأولى التي أذبح فيها دجاجة... لم يحزن قلبي على ذبحها، ربما لأن قلبي تحجّر من التّعب، أو لأننا لم نتعلم الرحمة جيداً من معلمينا في المدارس، أو لأني لم أشهد مواطن الرحمة في مجتمعنا كثيراً، أو لربما أن لحمها كان أشهى من التّباكي عليها.

لم أعرف أن الزّمن يطول، إلا عند انتظار الانتهاء من طبخها، وكلما أسألها:

-وينتى الأكل؟

-ولك هذي عتقيّة، بتطّول تتستوي.

وبعد طول انتظار وزياراتٍ متكررةٍ إلى (القدرة) التي تتمدد فيها جاجة ستّي، والتي تحولت إلى فرنٍ ذريٍ؛ لما وضعت ستّي تحت القدرة من حطب.

وبعدة مدةٍ كانت بالنسبة لي أطول من انتظار نصر للعرب، قالت لي بصوت ضعيف: استوت الجاجه.

-يعني بدنا نوكل؟

-صبرك، بدّي احمّرها في الطابون، الطابون مدعك، وام خليل زبلتو امبارح.

دخلت الطابون وصاحت: ولك يا قروط مين إلي أخذ المقحار؟

-مش أنا ...هو كل شي بضيع في الدار أنا مسؤول عنّو؟

ولكن شهيتي للطعام دفعتني أن أبحث عن (مقحارٍ) آخر كنت ألعب به قبل أيام بجانب الطابون،

حضرته بسرعة، وناولته لها.

-عزا عليك، ما بتخلي إشي في مطرحو.

وبعد طول عناء أخرجت ستي دجاجتها التي كادت طيب رائحتها تقتلني من الجمال وشدة الجوع... لم أصدق، كدّت أجن، حضر والدي ومعه ثلاثة ضيوف ... تناولوها... ولم تبق شتيمة إلا قلتها بحق حظي العاثر، والدموع تملأ وجهي.